

التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة الثامنة عشر: منطلق الدعوة



التأصيل الإسلامي؛ منطلق الدعوة.. المحاضرة الثامنة عشر من سلسلة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل 46 سنة

منطلق الدعوة

الأحد 19 رمضان المبارك 1394 هجرية

14/7/1353 هجرية شمسية

تحدثنا في الجلسات السابقة عن هدف الأنبياء وذكرنا أنه يتلخّص في إقامة المجتمع التوحيدي والنظام التوحيدي وهدم نظام الشرك الجاهلي وقيادة نهضة عظيمة في المجتمع. وبتناول في هذه الجلسة نقطة البدء في حركة الأنبياء. من الطبيعي أن تتضح نقطة البدء في كل مشروع عملي للفرد أو للجماعة، فالمنطلق مهم لنجاح العمل إذا كان ذلك المنطلق صحيحًا، وإن كان خاطئًا فلا يتحقق الهدف المطلوب.

واتضح نقطة البداية في عمل الأنبياء بشكل درسيًا للسائرين على طريقهم، كما يبين أساس مدرستهم وروحها ولبّها. والملاحظ أن الأنبياء لم يبدأوا عملهم بمجاملة واقع مجتمعهم، لم يعلنوا أهدافًا فرعية لينتقلوا بعدها إلى إعلان أهدافهم الأساسية، بل بدأوا بإعلان هدفهم الأساس بكل صراحة ووضوح. فما هو هذا الهدف؟ إنه «التوحيد».

التوحيد كما ذكرنا يختزل كل مدرسة الأنبياء (عليهم السلام). التوحيد ومعرفة الله مبعث تكامل الإنسان وسمو روحه. مشروع التوحيد يعني كذلك إقامة المجتمع الذي يسوده النظام الإلهي: النظام العادل، والنظام الخالي من التمييز الطبقي والاستثمار والظلم. وفي ظل هذا المجتمع يتوفر الجو اللازم — كما ذكرنا — لتكامل الكائن البشري ونموّه. إنه المجتمع الذي لا إله فيه إلا الله، ولا لأحد حق أن يدعو الناس لإطاعته، حتى النبي الحامل لرسالة السماء ليس له حق مثل هذه الدعوة: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قَوْلًا تُهْتَفَقَدُ عَلَيْهِ تَعْلَامُ مَا فِي زَفْسِي) [1]. (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُفْوِتِيَهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِيَمَا كُنْتُمْ تُدْرُسُونَ) [2]. وإذا كان النبي لا يحق له أن يستعبد الناس ويخضعهم إلى أوامره بشكل مطلق فما بالك بغيره من الطواغيت الذين سيطروا على مقدرات البشرية على مر التاريخ؟! التوحيد يرفض ذلك تمامًا، هذا هو معنى التوحيد، ومن لم يفهم التوحيد بهذه الصورة فهو إما أن يكون قاصرًا في مطالعته أو في فهمه، فهذه من واضحات القرآن الكريم. ذكرت باختصار من قبل في مبحث التوحيد أن النبي حين يعلن في مجتمعه أن «لا إله إلا الله» فإن جميع أفراد المجتمع يعرفون ماذا يعني هذا الشعار، المواليين منهم والمعادين.

منذ اليوم الأول حين نزل النبي، بعد هبوط الوحي عليه، من غار حراء وأعلن نداء التوحيد، ظهرت الجبهة المعارضة المعادية كما ظهرت الجبهة الموالية.

أنا اليوم أبذل جهدًا لتوضيح مفهوم التوحيد، وأنه رفض كل قدرة غير قدرة الله، لكن أبا لهب والوليد بن المغيرة المخزومي وأبا جهل وغيرهم من سراة قريش أدركوا محتوى هذا المفهوم، فهموا أن نداء «لا إله إلا الله» ليس مسألة عقائدية فحسب، بل هو أيضًا قضية اجتماعية، يعني زوال مكانة أمية بن خلف[3] والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل[4]. فهموا ذلك منذ اللحظات الأولى، لذلك هبوا للمعارضة ومناصبه العدا. لم يكن هؤلاء ينطلقون في عدائهم من التزامهم بدينهم الجاهلي أو من تقديسهم لأصنامهم، وإن ادّعوا ذلك فهم كاذبون. مشكلتهم الأساسية مع النبي المبعوث هي مشكلة اجتماعية. لقد رأوا في نداء التوحيد هدمًا لعروشهم، وفهموا أن مجتمع التوحيد يعني رفض الظلم، ويعني هدم صرح نظام التمييز الاجتماعي والطبقي، ولذلك تصدوا لمعارضته كما تصدى من قبلهم فرعون ونمرود، وكما تصدى زعماء بني إسرائيل لدعوة عيسى، وكما عارض عاد وثمود أنبياءهم.

الأنبياء يعلنون منذ البداية أهدافهم النهائية، لا كما تفعله المذاهب الوضعية التي تخفي أهدافها النهائية، وتُلهي الناس بآمال واهية، ثم يتبين بعد ذلك أن هدفها النهائي هو تحقيق مآرب أخرى. الأنبياء يقولونها منذ اليوم الأول إن هدفهم إنزال المستكبرين من صياصيمهم، ورفع المستضعفين من حالتهم.

ومن عطاء هذا الإعلان عن الهدف النهائي هو أن المؤمنين بهذا الدين سيختارون طريقهم عن وعي وبصيرة، سيختارون الطريق وهم يعرفون إلى أين يتجهون وإلى أي هدف هم ذاهبون. وبذلك تزداد هماتهم وترتفع قدرتهم على تحمل المصاعب والأخطار، ويعلمون أنهم يسبرون على طريق ذات الشوك. وهذه حالة طبيعية للسائرين نحو المثل الأعلى الكبير والمتجهين نحو معشوقهم. وكلما كان الهدف أوضح وأكبر تكون القدرة على تحمل مشاق الطريق أكثر.

هذه الصور الرائعة من التضحيات التي قدمها السائرون على طريق الرسالة، إنما هي بسبب ما تحلوا به من بصيرة. هؤلاء الشباب الذين تحرروا مما ينشد إليه أمثالهم، وهجروا الأهل والبيت والراحة إنما كانوا يتجهون نحو هدف هم به عالمون وله عاشقون. البصيرة كانت وراء ما قدمه الزوجان ياسر وسمية من تضحيات وما تحملوه من مشاق.

لقد قرأت قبل أيام كتاب «الوعد الحق» لطفه حسين وفيه عرض لما تحمّله الرعيل الأول من المسلمين في سبيل عقيدتهم ورسالتهم. وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذ أحمد آرام[5]، وأدعوكم لقراءته.

نعم البصيرة والوعي مقدمة لازمة للدين. هذه هي حقيقة الدين الإلهي، خلافًا لما عليه مجتمعاتنا

الإسلامية اليوم. الدين في مجتمعاتنا يعني إلغاء البصيرة والوعي. هذا ما ترسخ في ذهن المتدينين وغير المتدينين. كلا الفريقين يحسان أن الدين يعني سدّ منافذ الفهم.

المتدينون يؤمنون بأن أصول الدين لا يمكن أن تكون عن تقليد، ولكن الويل لمن يجرؤ على أن يتجاوز التقليد!! لقد عرفنا أن فروع الدين يجب الرجوع فيها إلى متخصص لا إلى العقل فخلنا أن كل الدين على هذا النحو. الدين أساسًا مقرون بالوعي والبصيرة. وإذا كنت تقبل الدين دونما إيمان قلبي فإن الدين لا يقبلك، لأن الدين يعبر أهمية للوعي وللبصيرة، ويدعو إلى أن يكون التوجه نحو □ منذ البداية توجّهًا واعيًا، ومن هنا فإن الأنبياء يعلنون هدفهم النهائي منذ الوهلة الأولى للدعوة.

وثمة نتيجة أخرى يمكن أن نفهمها في هذا المجال وهي أن السائرين على طريق الأنبياء، وهم ورثة الأنبياء سواء العلماء الذين ورد في الأثر أنهم ورثة الأنبياء، أو سائر السائرين على طريق إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليهم أفضل الصلاة والسلام).. هؤلاء السائرون بأجمعهم يجب أن يعرفوا من أين يبدأون في مسيرتهم الإلهية.. من التوحيد.. من نقطة البدء التي شرع منها الأنبياء. وإذا لم تكن قادرين على أن نستنهض البشرية على المستوى العالمي في إطار التوحيد، فلنعلن على الأقل في آفاق العالم أن هدف الأنبياء ومقصدهم هو هذا الاستنهاض.

لماذا لا يكون منطلق الخطاب الديني هو التوحيد بدل الانشغال بمسائل فرعية من الدرجة الثانية والثالثة؟!

دعاة الدين وعلماء الدين طبعًا لهم مكانتهم وأهميتهم في بيان حقائق الدين وأحكامه، وبدونهم سيكون وضعنا أقطع مما عليه الآن، بعضهم يفهم ما عليه من واجب ويفهم من أين يبدأ في خطابه الديني، ولكن بعضهم الآخر لا يبدأون من حيث بدأ الأنبياء، يطرحون مسائل من الدرجة التاسعة والعاشرية ويحسون أنها أهم من مسألة التوحيد، ومن القرآن، وأصول الدين والمعارف الإسلامية السامية.

وفي السيرة يلتقطون المسائل ذات الدرجة الرابعة والخامسة في الأهمية من حياة رسول □ (عليه الصلاة والسلام).

على سبيل المثال ثمة رواية تذكر أن الرسول كان يرى مَن° خلفه كما يرى مَن أمامه. والشيخ الصدوق يعلّق على هذا الخبر بأنه يعني فطنة النبي وكياسته ووعيه على مَن حوله. هذا تعليق الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي صاحب عشرات المؤلفات القيّمة المهمة. لكن هناك من يأخذ هذه الرواية على

ظاهرها ويورد الآراء المختلفة للمحدثين بشأنها، لكنه لا يتعرض أصلاً لهدف النبوة وللمجتمع الذي أقامه النبي، والحكومة التي أسسها، وما مارسه من تغيير اجتماعي.

العالم الإسلامي اليوم بحاجة ماسة إلى طرح مثل هذه المسائل العملية الحساسة. مريضنا اليوم في حالة احتضار، فلا يجوز التأخير في المعالجة. دعوا المسائل الكلامية ذات الأهمية من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة ليومٍ نفرغ فيه من مسائلنا الأساسية. نعيد الكلام بأن نقطة البدء في دعوة الأنبياء هي التوحيد. ونورد في هذا المجال بعض الآيات ونبدأ بآية من سورة النحل:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [6] هذا هو أول إعلان الأنبياء. والطاغوت هو مَنْ وضع نفسه مكان الله، وتصدى لمواجهة أوامر الله أيًا كان. وقد يكون الطاغوت هو أنت: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» [7]. قد يكون الأهواء والمشتهيات. قد يكون طاغوت الإنسان هو استعلاؤه، وقد يكون تكبره. وقد يكون قوى خارج الإنسان. على أي حال جاء الأنبياء ليقولوا: لا الطاغوت.. اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

(فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّقَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ) انظروا إلى حضارتهم المنهارة، وبلدانهم الخربة. انظروا إلى خرائب بابل وآشور وكلد، وإلى مخلفات الفراعنة، انظروا كيف أصبحوا وكأنهم لم يكونوا. هذه سنة الله في الكون بشأن كل أمة تنحرف عن طريق عبودية الله. لقد كانت هذه السنة تتحقق في الأمم الماضية بإنزال العذاب والإبادة الفورية بالطوفان والزلازل، غير أن هذه السنة باقية إلى آخر الدهر. فالفناء حتمي لكل أمة لا تسير وفق الدين الإلهي. ولا يعني هذا أن أفرادها يهلكون ويموتون، بل إن الإبادة ستلحق بهويتهم الوطنية. سيدوبون في الهويات الأخرى. أين هوية آشور ومعين وبابل؟ أين ما شادوه من حضارة؟ لا شيء: (فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ).

وفي سورة الأعراف ذكر الأنبياء واحدًا واحدًا في سياق منطلق دعوتهم، تبدأ أولًا بنوح: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) [8] ثم تذكر الآيات التالية إعراف هؤلاء القوم وما نالهم من عذاب.

وهكذا النبي هود: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) [9].

واستطرادًا نشير إلى أن بعض دراسات علم الاجتماع تذهب إلى أن التوحيد يشكل مرحلة من مراحل تطور البشرية، إذ كان في البدء الشرك، ثم تكاملت المجتمعات لتصل إلى فكرة التوحيد. وهذا الكلام لا يقوم على أساس فالتوحيد كان موجودًا منذ فجر تاريخ البشرية.

وأمام دعوة هود ظهرت جبهة المكذابين: (قَالَ الْأُمَمَ الْأُولَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّنَا لَنَنزِرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّنَا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) وهذه هي التهمة التي توجه إلى دعاة الحق في كل زمان. ويجيبهم هود:

(يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ # أُولَئِكَ كُفِرُوا لِي مَا كُنْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجْسًا وَمَآئِدًا تَدْرُسُونَ فَانْتَحِبُوا مِن نَّحْوِي أَيَّ شَأْنٍ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) فأنا لا أريد لكم إلا الخير والكمال والرفق حين أدعوكم إلى التوحيد.

(أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عِلْمِي رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ) جاءكم الذكر على رجل منكم، يلبس مما تلبسون ويأكل مما تأكلون. فهل في ذلك عجب؟!

(وَادْكُرُوا إِيَّاهُ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِهِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) استخلفكم بعد قوم نوح، ومنحكم قوة وقدرة في خلقكم وأجسامكم. فلا تنسوا نعمة الله عليكم.

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ وَأَنْتَ فَخْرُكُمْ) ونذركم ما كان يعبد آباؤنا) لقد فهمت القوى المضادة فورًا ما معنى (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ) فواجهت النبي بالتمسك بما كان عليه الآباء، وبالتشكيك في الدعوة: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(قَالَ قَدِّ وَقَعَّ عَلَيَّ كُفْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمْ مَوْهَبًا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ إِلَّا بِرِهَابٍ مِّن سُلْطَانٍ) لقد حق عليهم العذاب بسبب إصرارهم على التمسك بما ألف عليه الآباء، وبسبب هذا الذي صنعتوه أنتم وآباؤكم من آلهة منحتموها القوة والقدرة، مما لم ينزل إلا بها من سلطان. والسلطان هو القوة أو الحجّة والدليل والبرهان. بمعنى القوة فإن الله لم يمنح هذه الآلهة قوة وقدرة. وبمعنى الدليل والبرهان فالمعنى أن الله لم يمنح أي دليل وبرهان على صحة هذه الآلهة. فلماذا تضعونها إلى جانب الله؟!

(فَانتَظِرُوا إِنَّ رَبِّي مَعََكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) لنزول عذاب الله.

والحمد لله رب العالمين

[1] - المائدة / 116

[2] - آل عمران / 79

[3] - أمية بن خلف، شيخ الجمحيين من قبيلة قريش، عارض الرسالة منذ انطلاقتها، وناصب العداة لمن أسلم، ومارس التعذيب ببلال الحبشي بعد إسلامه، قتل في بدر بيد المسلمين.

[4] - العاص بن وائل بن هاشم، شيخ السهميين من قريش، ومن ألد أعداء الرسول، وهو الذي قال عن النبي إنه أبتري بعد وفاة ابنه القاسم، فنزلت سورة الكوثر لتجيبه.

[5] - أحمد آرام (ت 1998) شيخ الترجمة في إيران، درس الحقوق، ثم الطب، ثم انصرف إلى العمل الثقافي، وترجم أكثر من 140 كتابًا من العربية والإنجليزية والفرنسية إلى الفارسية، منها تاريخ العلم، وفي ظلال القرآن.

[6] - النحل / 36

[7] - بحار الأنوار، كتاب الإيمان والكفر، أبواب مكارم الأخلاق، باب مراتب النفس، ح 1.

[8] - الأعراف / 59

[9] - الأعراف / 65 - 71.